التطبيقات الانتروبولوجية قبل ظهورعلم الانتروبولوجيا

في الحضارات المائية يقصد بالحضارات المائية تلك التي يعود الفضل في نشوئها الى موقعها على ضفاف الانهر الكبرى , المحيطات او البحار , لقد قالها هيرودوتس ذات مرة "مصر هبة النيل" بعبارة اخرى لولا نهر النيل لما استطاع الفراعنة هندسة مدنيتهم واخراجها الى العالمية , خاصة في عصور غابت فيها وسائل الاتصال وكانت الجغرافيا هي التي تتحكم في جزء مهم من حركية التاريخ .

حضارة مابين النهرين

لاشك ان السومريين والاشوريين والاكديين وكل الشعوب التي ساهمت في حضارة بابل استلهمت عبقريتها من نهري دجلة والفرات , هذا النهر الذي انتج فعل الكتابة وادخل الانسانية الى التاريخ (تقريبا 3200ق م) واي اختراع اسمى من الحروف التي ستترجم اعمال البشر ومعجزاتهم , ان الانسان البابلي على الصعيد الاثنوغرافي –كما اشارت مراجع التاريخ*–لم يهتم بوصف الاخر اوالاهتمام بمعرفته , فقط" وجد الاخر" للسيطرة عليه واستعباده وسلب ثرواته , وجبت الاشارة الى ان مفهوم "الاخر" عند البابلي لم تكن له حدود معرفة في ضل التمازج الموجود بين المجتمع الانساني ومجتمع الالهة التي تحتل مكانة متقدمة في تفسير ظواهر الكون وحركية التاريخ , هذا التمازج سيبدا يقل مع الزمن ويبرز دور الانساني في المجتمع البابلي خاصة مع شريعة حمورابي (تقريبا 1900ق م) التي حوت اكثر من 200قانون منظم للعلاقات في مجتمع مابين النهرين, وابرزت "الانا" بصورة واضحة المعالم وانفصالها عن الاخر الذي بدا يتشكل في المخيال الجمعي.

---

*نقل البابليون تاريخهم عبر الواح طينية

الحضارة الفرعونية

حضارة شرقية اخرى كان لها دور ريادي في مسيرة الانسانية وهي التي نشات على ضفاف نهر النيل واعطت للعالم احد عجائبه السبعة(الاهرام) , وصلت اوجها بين(3500ق م تقريبا الى 800ق م) ,لقد ارخت لعلاقتها مع الزمن في جدران المعابد وكذلك القبور والالواح الطينية التي بواسطتها فهمنا المعنى الذي اعطاه الفرعوني لجل افعاله, وكذلك نظرته الى الكون والحياة والى كل مايحيط به , تنقل لنا مصادر التاريخ(نقوش وجدت في الديرالبحري) تلك الرحلة التي قام بها اسطول بحري فرعوني سنة 1493 ق م من مصر العليا الى مصر السفلى والى بلاد السودان بهدفين . التجارة واكتشاف الاخر المجهول بالنسبة "للانا المصري" الذي بدا تدريجيا يخرج من قوقعته ويتبنى الفضول المعرفي, وسيكون كبداية لتشكل التمثلات حول الاخر , ان طريقة الوصف التي نقلتها النقوش تبرز رغبة المصريين في المعرفة عبر الاهتمام بالحميميات المتعلقة باللباس , بطريقة الطعام وحتى بالسمنة والوسامة...الخ مما دفع مؤرخي الفكر الا نتروبولوجي الى اعتبار هذه الرحلة كاولى الخطوات للممارسة الانتروبولوجية في شكلها الاولي المتعلقة بالوصف , وباهتمام الانا بلاخر او مايعرف "بالغيرية".

الحضارة الاغريقية

الاغريق هم اجداد اليونانيون المعاصرون ,جغرافية ارضهم ميزها الانفتاح على الاخر خاصة في جزئها الجنوبي حيث البحر المتوسط , بحر ايجا وجزيرة كريت , وصلت حضارتهم اوجها تقريبا (بين 850 الى 200 ق م) وفيها بدات الاثنوغرافيا تاخذ مكانتها في الفضاء الجغرافي والانساني للمجتمعات المختلفة , بعبارة اخرى بدات "الانا" تدرك ذاتها بوصفها للاخر , الشاعر الاغريقي "هوميروس(الذي عاش تقريبا بين القرن 9 و 8 ق م) –حسب مؤرخي الفكر الانتروبولوجي–اهتم في "الالياذة" و"الاوديسة" بوصف جغرافيا المناطق و ساكنيها رغم طغيان الغرائبي وتمازجه بالواقعي , اننا نجد فيها عناصر اولية للاثنوغرافيا التي تهتم بالوصف وكفى1

1–حسين فهيم . قصة الانتروبولوجيا .سلسلة عالم المعرفة , المجلس الوطني للثقافة والاداب والفنون , الكويت , 1986, ص41

, سننتظر تقريبا 400سنة من الزمان (تقريبا 500سنة ق م) ليظهر "هيرودوتس " بكتابه (التواريخ) والذي اعتبره بعض المؤرخين "كاب الانتروبولوجيا " بوصفه لاكثر من 50شعبا (من بلاد الفرس مرورا بالمصريين ووصولا الى شعب الليبو الساكن شمال افريقيا) ورغم الطبيعة التاملية للحضارة الاغريقية واغراقها في المثالية الا ان هيرودوتس في دراسته غاص في الواقع ونقله كما راه , لقد كان موضوعي الى ابعد الحدود ولم يبق حبيس ذاته ,و رغم ارتباط مصطلح البربري به الى ان السياق والمعنى سيحول مع مرور الزمن , ان " بربري" هيرودوتس لم يكن يقصد به الهمجي , وانما هو "الاخر " و "الغير" اغريقي الذي لاعلاقة له بالانا اليونانية الناطقة والعارفة , ان المعنى يركز على "الاخر الجغرافي " اكثر من"الاخر الثقافي".

الحضارة الرومانية

رغم واقعية الحضارة الرومانية* الا ان كتب التاريخ لاتنقل لنا اشارات حول اهتمام "الانا الروماني "بوصف الاخر" , فقط اختصر الاخر عند الروماني في ارضه وثرواته و مادون ذلك فلايستحق الاهتمام , فقط يجب تقسيم التاريخ الروماني الى مرحلتين زمنيتين وفق سياقين ثقافيين متمايزين (السياق الديني الوثني تقريبا من 700ق م ال 300م) حيث سيادة عبادة الاوثان ووجود جزئي لمجتمع الالهة كملجا لغياب تفسير لمجموعة من الظواهر** , (السياق الديني المسيحي تقريبا من تبني قسطنطين المسيحية سنة 310 م الى سقوط روما 476 م) وفيها نجد حدود واضحة بين الانا المسيحي و"الاخر" ," فالرب يسوع" هو الذي حددها ووضعها في اطارها , ان الاخر هو غير المسيحي الذي لايؤمن بالرب يسوع , انه الكافر , لقد اختزلت الغيرية في السياق الثقافي الديني واهملت جل السياقات الاخرى , على مستوى الممارسة الانتروبولوجية لانجد الكثير سوى بعض الاشارات هنا وهناك خاصة عند علماء التاريخ , الباقي صمت مطبق.

---

*من اطول الحضارات واعظمها امتدت من بناء روما تقريبا 700 ق م الى سقوطها سنة 476

**وجبت الاشارة الى ان القانون الروماني كان يعلو من شان الانا عبر منح الجنسية الرومانية للاشخاص –الذين حسبهم– يستحقونها.

مرحلة القرون الوسطى

تبتدئ مرحلة القرون الوسطى في اوروبا حسب معظم المؤرخين بسقوط روما سنة 476 م في يد القبائل الجرمانية , وتميزت هذه المرحلة بطغيان الجهل والتخلف , وسيطرة الكنيسة على معاني الحياة , فاختزل الانسان والزمن في عبادة الرب بتاويل رجال الدين لهذه العبادة وفق مصالحهم واهوائهم , واصبحت كامل اوروبا كسجن كبير للافكار المتعلقة بالانسان , خاصة بتحالف قوى همها استمرارية الوضع لخدمة مصالحها المدنسة بالاعتماد غلى المقدس , نظام ملك يملك ويحكم باسم الرب , نظام اقطاعي لشراء الذمم , ورجال الدين لتبرير الافعال واضفاء المقدس , في ضل هذا الوضع سينظر الى الاخر باعتباره الغير مسيحي , الغير مؤمن بتعاليم يسوع , على مستوى الممارسة الانتروبولوجية لايوجد الكثير عدا اشارة الى اسقف يدعى ايزدور (560–636م) "والذي اعد موسوعة حول المعرفة في القرن السابع الميلادي , واشار فيها الى بعض تقاليد الشعوب المجاورة وعاداتهم , ولكن بطريقة عفوية تتصف بالسطحية والتحيز .فقد ذكر مثلا ان قرب الشعوب وبعدها عن اوروبا يحدد درجة تقدمها . فكلما كانت المسافة بعيدة كان التدهور الحضاري مؤكدا . ليس هذا فحسب , بل انه وصف اولئك الناس الذين يعيشون في اماكن نائية , بانهم سلالات غريبة الخلقة حيث تبدوا وجوههم بلا انوف "1

وبالرغم سقوط روما الا ان الشرعية السياسية والتاريخية انتقلت الى بيزنطا التي اتخذت من القسطنطينية في الشرق عامة لها , وستكون في تماس مباشر مع "الاخر المسلم" المنافس على الموارد وعلى الدين في صراعات عرفت بالحروب الصليبية (ابتدات سنة 1096 م) وفيها تشكلت التمثلات الخاصة بالمسلم في المخيلة الصليبية عبر الحج الى بيت المقدس اوانطلاقا من

1–حسين فهيم .المرجع السابق ص 52

المبشرين بالديانة المسيحية عبرالمادة الاثنوغرافية القيمة التي تعامل معها سواء فئة الحجاج او فئة المبشرين , هذه المادة ستصل زخمها مع حروب المغول بقيادة جنكيز خان(1162-1227م) ,وتميزت هذه المادة* بالتحيز والتقوقع على الذات ومحالة فرض منطق معين يدخل في اطار الصراع بين الشرق والغرب **

---

*يمكن ذكر رحلات نيكولاي بولو ومارك بولو(1254-1324)وكذلك مدونات الفرنسيسكان من بينهم دي بلانو كاربيني (1182-1252م) والتي ميزها الطابع الايديولوجي والسياسي وغيابها عن الموضوعية.

** للغوص اكثر في موضوع الصراع بين الشرق والغرب كتاب (الاستشراق والقرون الوسطى لجون غانم)